

وكان كذذب السوء لما رأى دمًا

بصاحبه يومًا أحال عليه الدم (١)

وقبيح بنا - نحن الشرقيين - أن نغمض أعيننا عن النظر إلى هذه المدينة التي أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهدد القنابل وزلازل الحرب ، وأن نام عن مستقبل أيامنا ، وألا ننفض هذه المدينة نفضًا لناخذ منها وندع ، ولنعرف سوء ماتركت أنيابها في جسم أوطاننا ، ونتبين حقيقة النفوس المسمومة التي أصبحت في الشرق فاشية تعمل على إدماجه في حضارة غريبة عنه ، ولا يطيقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عنتًا وإرهاقًا وغرورًا .

إن رؤوسًا من الناس في هذا الشرق قد طالت بهم أيامهم حين أقبلت عليهم الدنيا ، فأخذوا على الرأي العام منافذه كلها ، وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا ، لم يغلب عليهم إلا ذلك الداء الوبيل الذي قبسوه من مدينة الغرب ، داء المنفعة . طلبوا المنافع لأنفسهم فاستبدوا في غير ورع ، وتجبروا في غير تقوى ، وعملوا على أن يكون سلطانهم في الأرض كسلطان الله في السماء : يمحوا ما يشاء ويثبت ، علوًا في الأرض واستكبارًا ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟

إن الشرق لا يؤتى ولا يغلب إلا من قبل أهله . هذه هي القاعدة الأولى في السياسة الاستعمارية الماضية ، فعملت هذه السياسة على أن تنشر في الشرق عقولًا قد انسلخت من شقيتها وانقلبت خلقًا آخر ، وقلوبًا انبتت من علائقها ولصقت بعلائق آخر ، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقًا محفوظًا بالكذب والضلال والفسوق ، يختدعه عن الصراط السوى الذى يفضى به إلى ينبوع القوة الذى يتطهر به من شرور الماضى

(١) هكذا رواه أستاذنا رحمه الله ، والرواية المعروفة « وكُتتْ كذذب » ، والبيت للفرزدق ، ديوانه : ٧٤٩ ، وهو مروى هكذا أيضا فى طبقات ابن سلام ١ : ٣٦٢ ، الأغاني ٢١ : ٣٠٦ (طبع الهيئة) ، وستأتى هذه الرواية فى مقال « لا تدابروا أيها الرجال » ، ص : ٣٦٠ . وأحال على الشيء : أقبل ، والدُذِب إذا رأى الدم على أخيه أقبل عليه يفترسه ، ويترك عدوهما .

وأباطيل الحاضر ، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التي ضربت عليه ، ويجتاز الخنادق التي خسفت ^(١) حوله .

لقد لقينا بهؤلاء العنت حين استحکم لهم أمر الناس فتسلطوا عليهم بالرأى وأسبابه ، فخلعوا بسوء آرائهم على الشرق ليلاً من الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سواداً يختفى إذ يستبين . وكانوا له قادة فاعتسفوا به كل مضلة مهلكة تسل من قلب المؤمن إيمانه ، وتزيد ذا الريية موجاً على موجه . فلما كتب الله أن يدفع مكر هؤلاء بقوم جردوا أنفسهم للحق ، رأوا أن يلبسوا للناس لباساً من النفاق يترقون به إلى التلبيس عليهم ما حذقوا من المداورة ، وما دربوا عليه من فتن الرأى ، وما أحسنوا من حيلة المحتال بالقول الذى يفضى من لينه إلى قرارة القلوب ، حتى إذا استوى فيها لفها لف الإعصار ، واحتوشها من أرجائها ، ثم انتفض فيها انتفاض الضرمة على هبة الريح فى هشيم يابس .

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيام تنظاهر فيها الأقدار على أن تسلم إليه قيادة مدينته الجديدة بعد طول الابتلاء وجفاء الحرمان ، وجاءت مع هذه الأيام فتنة يُخشى أن تضرب أوله بآخره حتى لا يقوم شىء هو قائم ، ولا يبقى من أعلام الماضى إلا آثار التاريخ التى تقف شواهد على مامضى وآيات لما يستقبل . فإذا كان ذلك ، فإن الحكمة والحزم والجد أن نميز الخبيث من الطيب ، وأن نختار لأنفسنا قبل البدء ، وأن يلى منا أمر القيادة من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصريفها وتديرها وسياستها ، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور المتحفز ، فانتشر على وجوهه وتفرق ، وكأن ما كان لم يكن ، وكأن الفرصة قد عرضت لنا لتدع فى قلوبنا بعد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكري .

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يمدون أعناقهم يتناولون مرة أخرى للوقوف فى مقدمة الطلائع الشرقية ، ورأوا - من أجل ذلك - أن يماسحوا الرأى العام على بعض أهوائه وعلى طائفة من أغراضه ، ليستمر لهم ذلك المكان الذى

(١) خَسَفَت الأرض (من باب ضرب) : ذهب وغارت .

حازوه من قبل ، وليكونوا فى الشرق الجديد ما كانوا فى أيامه السالفة . فهم يبدون له ما لا يعتقدون عليه نياتهم ، ويحدثونه حديث مَن طَبَّ لَمَن حَبَّ (١) ، وهم كانوا قبلُ أعانوا عليه ، إذ أفسدوا صالح أعماله بالآثم من أعمالهم وآرائهم ، وهم كانوا عليه حربًا ، إذ نزعوا من يديه سلاح القتال فى سبيل حريته واستقلاله وانفراذه بخصائصه التى ورثها وخص بها ، وعمل الجيل بعد الجيل فى تنقيتها له تنقية المدرة (٢) من بين الحب .

ليس اليوم أوان يترك الشرق عنانه فى الأيدى التى لعبت به وغررت ، ولا هو يوم التهاون فى القليل لأنه قليل ، ولا هو يوم إحسان الظن بمن يحتال للظفر بحسن الظن ، ولكنه اليوم الذى يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث ، ومن كل مرتفق للنفع متشوّف (٣) للمصلحة ، ومن كل سبب من أسباب التدمير . فإذا فعل ذلك ، وأعطى كل ذى حق حقه ، وامتاز المجرمون ، وخلص له المخلصون واستعان بحرية اختياره على إقرار الناس فى مواضعهم وعلى مراتبهم ، فيومئذ يجد القدرة على انتزاع حريته من أنياب الغاصبين ، ويصيب مهاد الطريق إلى الغاية التى ينظر إليها بآماله وأشواقه نظرة العامل لا نظرة الحالم المتخيل .

وأخوف ما نخافه هو ما أوتى هؤلاء من الرفق واللين وحسن المجاملة ، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التى بها يأخذون بأيدى الناس وعقولهم ، وأنهم قد أوتوا نصيبًا من الصيت يتغلب بهم على ما يعترضهم أو يرددهم ، وأن الناس أسرع اتباعًا لما ألفوا وحينئذ إليه ، وأن البلبلة التى تأتى مع الحروب وتمتد فى أذيالها ، تدع الناس حيرى غرقى يتلمسون فى كل شىء شيئًا يتعلقون به ، فإذا لم تأخذ من الآن فى جد من الأمر ، ولم نصرّف جهودنا إلى اختيار الأصلح فى كل شىء ، فما بد من أن تجلى العمايات بعد عن الدنيا لتطبق علينا عماية مصفقة كالظلام المصمت . ويومئذ نرتدّ على أعقابنا حسرى عُناة كأسوأ مامر بنا من زمن ، وتضيع الفرصة السانحة ونحن غرقى فى بحر طام قد نرح عنا شاطئه بعد الدنو .

(١) الطَّبّ : الخبير الحاذق بالشىء ، وأصله الطبيب الماهر .

(٢) المدرة : تَطَّلَعُ إلى شىء بعيد .

(٣) تشوّف : تَطَّلَعُ إلى شىء بعيد .

فعلينا الآن أن نثق بأنفسنا غاية الثقة ، لأن الثقة بالنفس هي جيش الحرية ، وأن نشك كل الشك في أصحاب الرأي ومن يتعرضون للإمارة عليه ، لأن الشك في هؤلاء هو حارس الحرية ، وأن نشدد في مطاردة الضلال والعبث ، لأن هذه الشدة هي سلاح الحق وسلاح الحرية . فإذا غلب علينا التهاون في شيء من ذلك ، فإنها ثغرة تتدفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن كقطع الليل المظلم ، ويعجز أهله عن حمل أعباء الحضارة الجديدة التي اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها . فما بد من أن ينفذ الشرقي بعينيه ورأيه كل بارقة وكل غمام ، مخافة أن تنزل الصواعق عليه من حيث ظن الغيث .

ليس في الشرق قوى تضارع تلك القوى الهائلة التي صبت من الحديد والنار وأسرار الكون ، وليس فيه ذلك الغنى غنى الاستبداد والجبروت والسياسة ، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم من العقل العامل لإيجاد القوة في كل شيء لاستخلاص المنافع من كل شيء ، ولكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها الذي ينال النصر ما تعاون ولم يتفرق . وتلك هي قوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة الاستمرار إلى النهاية مصابرة لا ذلاً ، وإيماناً لا عناداً ، وتسليماً لا غفلة ، فعلينا أن نعرف فضائلنا التي توارثناها ، وأن ننفي عنها ما خالطها من خبث الجهالات القديمة التي تراكمت عليه فقعدت به أزماناً طوالاً ، حتى استرخى نائمًا والناس يقظي .

إن الشرق إذا خلص من شر النفايات الطافية على سطحه ، وإذا وثق بسلطان الروح السامية التي لا تذلل ، وإذا نهج النهج لا يتهب ، فما بد من أن يحوز من القوة ما يضارع قوة المدنية الأوربية المتهالكة ، وأن يجعل في هذه القوة من النظام الروحي النبيل ما يرد كل غائلة ويمنعها كل عدوان ، ويرفع الإنسانية درجات في طريقها إلى السماء . وهذه أيمانٌ فيها عبءٌ كثيرةٌ لمن يعتبر ، فإن حقائق المدنية الأوربية تستعلن كلها في هذه الرجة العظيمة التي ترجف بالعالم ساعة بعد ساعة .

ولكن علينا أن نثق ، وعلينا أن نشك ، فإذا رفعت الثقة أسباب الشك ، فإن الخير كله آت على طول الجهاد وترك التهاون وعلى استجدادة العمل ومرابطة

النفس عليه ، وعلى الأناة دون العجلة ، فإن العرس الصغير يكبر على التعهد حتى
يؤتى الثمرة ، ومن استعان بأسباب الحق أعين ، ولا يهلك الناس إلا من هيبة
أو تهور .
